أبو الشهداء

الحسين بن علي

عباس محمود العقاد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

يسرنى أن أقدم إلى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبى الشهداء » ويعظم رجائى أن يصل إلى أيد كثيرة غير التى وصل إليها فى طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات .

ليس من عادتى أن أطلع فى كتبى بعد الفراغ من طبعها ، ويتفق أن تمضى السنوات دون أن ألقى عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فإذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها إلى طبعة جديدة ، أمكننى أن أشعر بها شعور القارىء الذى يطلع عليها لأول مرة ؛ بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذى امتلأ بها وأدارها فى نفسه عدة مرات . وقد أستغرب منها أمورًا كالتى يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » .

عجبًا ! إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يصلونها نارًا حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! .

كان هذا شعورى بكتاب أبى الشهداء حين قرأته من جديد لتقديمه إلى هذه الطبعة : مسكينة هذه الإنسانية ! لا تزال فى عطش شديد إلى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد فى هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الإنسانية وجودًا ماديًّا فعليًّا وأصبح لزامًا لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطيارات .

الوحدة الإنسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية فى كل شىء إلا فى ضمير الإنسان وروح الإنسان .

حقيقة واقعية فى اشتباك المصالح التجارية ، وفى اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى .

حقيقة واقعية فى أعصاب الكرة الأرضية إذا صح هذا التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها فى أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب فى أقصى المغرب وفى أقصى الشمال والجنوب .

حقيقة واقعية فى كل شىء إلا فى ضمير الإنسان وفى روح الإنسان ، وهذا هو المهم والأهم إذا أريدت للإنسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام .

ولن توجد هذه الوحدة إلا إذا وجد الشهداء فى سبيلها . فأنعم بمقدم « أبى الشهداء » من جديد إلى ضمائر فريق كبير من بنى الإنسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات فى سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال .

نتفاءل أو لا نتفاءل ..

نتشاءم أو لا نتشاءم ..

ليست هذه هى المسألة ، وإنما المسألة هى أن طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ، ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء .

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية . فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته فى سبيلها .

لا بقاء للإنسانية بغير الاستشهاد ..

وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية إلى ذكرى شهيدها الأكبر فنحنى الرؤوس إجلالاً لأبى الشهداء .

عباس محمود العقاد

مزاجان تاريخيان

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة .

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما إذا اصطدما — ولا سيما فى الأعمال الكبيرة — لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا للأريحية حتى يحبَّ المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يحبَّ الأريحية ويخفيها .. أو كذلك يتراءيان .

وأصحاب المطالب الكبرى فى التاريخ يعتمدون على هذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من طموح إلى النبل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر فى سبيل العظائم .

ولكل منهما سبيله إلى النفوس وأمله فى النجاح على حسب الأوقات والبيئات .

إلا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التى لا تتبدل مع الأوقات والبيئات .

لأن منفعة الإنسان وجدت لفرد من الأفراد .

أما الأريحية التى يتجاوز بها الإنسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الإنسانى كله . ومن ثم يكتب لها الدوام إذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك .

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما نقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضى قدمًا إليها ، فينال المنفعة التى لا ينالها صاحب الأريحية لأنه يتركها إذا اصطدمت بما هو أجل منها .

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ..

ولكن النجاح فى الحركات التاريخية لن يسمى نجاحًا إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فإذا قيل إن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهى الباقية بعد ذهابهم .. ومن هنا يصح أن يقال إن الأريحية أبقى وأنجح إذا هى اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين .

وأصحاب الأريحية إذن أبعد نظرًا من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير . فهم – شعروا أو لم يشعروا – بعيدو النظر إلى عواقب الأمور ، وإن خيِّل إلى الناس أنهم طائشون متهجمون .

أما موقف المؤرخين فى العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير .

فالذين يجنحون بمزاجهم إلى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم .

والذين يجنحون بمزاجهم إلى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبونها عذرًا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق .

إلا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ..

وأن العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه وإهماله ، إذ كان تركه مناقضًا لصميم الفطرة التى من أجلها فطر الناس على الإعجاب بكل ما يستحق الإعجاب .

فليس يخشى على الناس يومًا أن ينسوا منافعهم ويقصروا فى خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين .

ولكنهم يخسرون الأريحية إذا فقدوها وفقدوا الإعجاب بها والتطلع إليها ، وهى التى

خلقت ليعجب بها الناس . لأن حرص الإنسان على منفعته لا يغنيهم فى حياتهم العامة أو فى حياتهم الباقية . أما الأريحية التى يتجاوز بها الإنسان نفسه فى سبيل معنى من المعانى أو مثل عال من الأمثلة العليا ، فهى الخليقة النافعة للنوع الإنسانى بأسره ، وإن جاز اختلافهم فى كل معنى وفى كل مثل عال .

صراع بين الأريحية والمنفعة

فى ماضى الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التى وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد .

ولكننا لا نحسبنا مهتدين إلى نموذج لهذا الصدام أوضح فى المبادىء وأهدى إلى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معًا من النموذج الذى عرضه لنا التاريخ فى النزاع بين الطالبيين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علىّ ، ويزيد بن معاوية .

قلنا فى كتابنا « عبقرية الإمام » ما فحواه أن الكفاح بين على ومعاوية ، لم يكن كفاحًا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحًا بين الإمامة الدينية والدولة الدنيوية ، وأن الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون إلى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون إلى الإمامة من حزب الإمام .

ولو حاول معاوية ما حاوله علىّ لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علىّ أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئًا عند محبيه ولا عند مبغضيه .

فإذا جاز لأحد أن يشك فى هذا الرأى ، وأن يرجع بنجاح معاوية إلى شىء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز فى الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال أن أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الإمامة على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الإمامة غير مطالب الزمان .

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعًا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين . وإنما هو الصراع بين الإمامة والملك الدنيوى ، أو بين الأريحية والمنفعة فى جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من الفوز والغلبة .

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من « تقريره للنظام

وحفظه للأمن العام » .. فإن يزيد لم يكن له فضل قط فى قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده . وإنما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين فى بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاوية الثانى بالشام — وكان من الزاهدين فى الحكم — فنادى الناس إلى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أما بعد فإنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ثم أوى إلى بيته ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا منافس قوى كعبد الله بن الزبير بالحجاز .

* * *

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علىّ ويزيد بن معاوية .. ورأى معاوية وأعوانه فى هذا أسبق من رأى الطالبيين وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيرًا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه . ولم يستحسنوا ذلك قبل إزجائهم النصح إلى يزيد غير مرة بالإقلاع عن عيوبه وملاهيه . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه فى الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابًا « يصغر إليه نفسه » .. قال : « وما عسيت أن أعيب حسينًا ؟ .. والله ما أرى للعيب فيه موضعًا » .

* * *

وثم تعلة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين على ومعاوية ولا موضع لها فى المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبة معاوية على « علىّ » بحجته فى الإقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه فى الدعوة السياسية .

فهذه التعلة إن صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هى بصالحة لتعليل نجاح يزيد .

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التى صاح بها معاوية فى المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة العصبية المهتاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها فى مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرًا بطلب الخلافة ولا متعرضًا لمزاحمة أحد على البيعة ، وإنما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد فى دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة .

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا أن المُلك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ،

وأن معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث المُلك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأى ولا هو من أهل الصلاح ولا هو ممن تتفق عليه آراء هؤلاء ، ولكنه فتى عربيد يقضى ليله ونهاره بين الخمور والطنابير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان إلا ليهرع إلى الصيد فيقضى فيه الأسبوع بعد الأسبوع بين الأديرة والبوادى والآجام ، لا يبالى خلال ذلك تمهيدًا لمُلك ولا تدريبًا على حكم ولا استطلاعًا لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار إليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير .

فكل خلاف جاز فى المفاضلة بين علىّ ومعاوية غير جائز فى المفاضلة بين الحسين ويزيد .. وإنما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريحية الصراح فى مواجهة المنفعة الصراح . وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما فى النفس الإنسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما فى النفس الإنسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء .

أقام الحسين ليلته الأخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات ، فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل إن كانوا يستحيون أن يفارقوه فى ضوء النهار . فأبوا إلا أن يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدى : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما بقى قائمه بيدى ، ولو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » . وقد بر مقسمه وبقى ومات .. ودنا منه حبيب ابن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا أنى أعلم أنى فى أثرك لاحق بك لأحببت أن توصينى حتى أحفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا — رحمك الله — أن تموت دونه » وأومأ بيده نحو الحسين .

وقتل الحسين .. وذهب الأمل فى دولته ودولة الطالبيين من بعده إلى أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها .

فلما نعى الحسين فى الكوفة نادى واليها ابن زياد إلى الصلاة جامعة . وصعد إلى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته » .

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدى

الذى ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين . فصاح بالوالى معاداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة ! أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه » .

فما طلع عليه الصباح إلا وهو مصلوب ..

إلى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الإنسانية نصرة الحسين ..

وإلى الأغوار المرذولة من الخسة والأثرة هبطت بالنفس الإنسانية نصرة يزيد .. وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون إلى الجزاء .. يسرعون إليه وليسوا هم بكافرين بالنبى الدفين فى تلك المدينة ، فيكون لهم عذر الإقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم !

بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين بالضرب فى كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب ! ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده ، لكانوا فى شرعة المروءة أقل خسة من ذاك .

* * *

وتتقابل وسائل النجاح فى المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات ..

فكان شعار معاوية وأشياعه : « إن لله جنودًا من العسل » وهو يعنى العسل الذى بداف بالسم ليخلى طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الأصدقاء . فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن على والأشتر النخعى بهؤلاء الجنود ! وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيرًا لمعاوية فى حروب الشام .. فإنه مات مسمومًا على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد .. وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طبيب معاوية « ابن أثال » الذى اتهموه بسمه فى الدواء .

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا وشيكين أن يبلغوا مقصدهم من قريب . فقد كان هانئ بن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل أنه « إذا صرخ لباه منهم ألف سيف » .

فزاره عبيد الله بن زياد — والى يزيد على الكوفة — ليعوده فى بعض مرضه ويتألفه ويستميله إليه . وقيل إن هانئًا عرض على مسلم بن عقيل بن أبى طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنده ، وقيل إن الذى عرض ذلك رجل من صحبة هانىء المقربين . فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالى ، وجنوده قد تعقبوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « إنا أهل بيت نكره الغدر » . ولو أنه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد .

وليقل من شاء إن قتل ابن زياد كان صوابًا راجحًا ..

وإن التحرج من قتله كان خطأ فادحًا من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذى لا يشك فيه أنه إن كان صوابًا فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وإن كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذى لا يستطيعه إلا القليلون .

* * *

كذلك يقول من يقول إن الأريحية التى سَمَت إليها طبائع أنصار الحسين ، إنما هى أريحية الإيمان الذى يعتقد صاحبه أنه يموت فى نصرة الحسين فيذهب لساعته إلى جنات النعيم .. فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان . وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التى يصاب من جرائها الفرد طوعًا أو كرهًا فى خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟ إنهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التى يتغلبون بها على رهبة الموت ويقدعون بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعًا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنَّة واحدة فى الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر إذن فى آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين .

وكذلك يقول من يقول إن الأريحية فى نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه إلى يومه الأخير .. وينسى هؤلاء أن الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسبر فى مكان واحد كما يسبر

فى كل مكان ، وإنما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذى تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين .

فمدار الخلاف إذن فى هذه الجولة التاريخية إنما هو الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائنًا ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامة فى النزاع بين الطالبيين والأمويين ، وخاصة فى النزاع بين الحسين ويزيد .

فحياة الحسين رضى الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها فى توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح فى كفاح الحياة ، سواء نظرنا إلى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب .

الخصومـــة

أسباب التنافس والخصُومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع إلى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية ، إلى الترات الموروثة ، إلى السياسة ، إلى العاطفة الشخصية ، إلى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير .

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمية ناقمًا إلى الشام وبقى هاشم منفردًا بزعامة بنى عبد مناف فى مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز .

ثم علا نجم « أبى سفيان بن حرب بن أمية » فى الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة إلى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان فى طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبى سفيان أصبع ظاهرة فى تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادفات زمنًا من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش فى حربها للنبى ﷺ . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تيم وبنى عدن وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالإسلام ، وبقى أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية فى منازلة النبى ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وبلغ من تغلغل العداء فى هذه الأسرة للنبى ﷺ ، أن أبا لهب عمه كان أوحد أعمامه فى الكيد له والتأليب عليه ، وإنما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبى سفيان التى وصفها القرآن بأنها « حمالة الحطب » .. كناية عن السعى فى الشر وتأريث نار البغضاء ..

ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر إلى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيمًا » .. فلما قال العباس : « إنها النبوة ! » . قال : « نعم إذن ! .. » .

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة ، وكان إسلام بيته أعسر إسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح فى القوم بعد إسلامه : « اقتلوا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه .. قبح من طليعة قوم .. هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ! .. » .

* * *

وظل أبو سفيان إلى ما بعد إسلامه زمنًا يحسب غلبة الإسلام غلبة عليه ، فنظر إلى النبى مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : « ليت شعرى بأى شىء غلبنى ! » فلم يخف عن النبى ﷺ معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له : « بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! » .

وكان فى غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول : « ما أراهم يقفون دون البحر ! » وقيل إنه كان فى حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم : « إيه بنى الأصفر » ، فإذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبنى الأصفر ! » .

* * *

وقد تألفه النبى ﷺ ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حرمًا « من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم فى العطاء عسى أن يذهب ما فى نفوسهم من الكراهة لغلبة الإسلام .

ومع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون إليه ولا يقاعدونه ، حتى برم بذلك وأحب أن يمسح ما بصدورهم من قبله .. فتوسل إلى النبى أن يجعل معاوية كاتبًا بين يديه وأن يأمره ليقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين .

ثم قبض النبى ﷺ ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى .. فاشرأب أبو سفيان إلى هذه الفتنة ، وخيل إليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها إلى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الإسلامية بأسرها .. فدخل على « علىّ » والعباس ، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما فى وسعه من خيل ورجل . فنادى بهما : « يا على ! وأنت يا عباس ! .. ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه - على أبى بكر - خيلاً ورجلاً وآخذنها عليه من أقطارها » ..

وهو لا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم ، ولا كان يسره أن تصير الخلافة إليهم فتستقر فيهم قرارًا لا طاقة له بتحويله .. ولكنه أراد خلافًا يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء .

فلم يخف مقصده هذا على « علىّ » رضى الله عنه ، وقال له : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلاً ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خليناه وإياها » . ثم أنبه قائلاً : « يا أبا سفيان ! .. إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض .. متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم » .

وانقضت خلافة أبى بكر وخلافة عمر والأمور تجرى فى مجراها الذى يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب الفتن أن يبرزوا بها من جحورها .

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار ، لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لزعماء بيوتهم ، وأصبحت الدولة الإسلامية أموية لا يطمع فى خيراتها ولا ولاياتها إلا من كان من أمية أو من حزبها . فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبى سفيان والى الشام يجتذب إليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون ويخشى منهم الخلاف .

فلما قتل عثمان رضى الله عنه كان المنتفعون بمناصب الدولة وأموالها جميعًا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان إلى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين .

* * *

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعًا معروف النهاية من مطلع البداية ، فقتل على ابن أبى طالب غيلة وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان .

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علىّ ، فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره بجدالهم ومحالهم ، وكان رجلاً سكيتًا يكره المنازعة ويجنح إلى العزلة ، فصالح معاوية على شروط .. وفّى له معاوية بالمعجل منها والتوى عليه بمؤجلها . وزاد على ذلك كما تواتر فى شتى الروايات أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجها يزيد ويعطيها مائة ألف درهم ، فوفى بوعد المال ولم يف بوعد الزواج .

وقد أوصى الحسن رضى الله عنه أن يدفن عند قبر جده إلا أن تخاف فتنة . فلما توفى

أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع بنى أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه .. فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبى أن يدفن إلى جوار جده ، فقيل له : « إن أخاك قال إذا خفتم الفتنة ففى مقابر المسلمين سعة .. وهذه فتنة » .. فسكت على مضض .

أهداف معاوية

وقد كان معاوية ولا ريب ينوى أن يجعلها دولة أموية متعاقبة فى ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، إلا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضى بنيته إلى أقرب المقربين إليه ، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل إلى ذلك بما طاب له من وسيلة .. فلباه أهل الشام وكتب بيعته إلى الآفاق ، ثم همه أمر الحجاز فكتب إلى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالإباء ، لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من نقض وعبث .. فعزله معاوية وولى سعيد بن العاص مكانه ، فلم يجبه أحد إلى ما أراد . فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن جعفر ، والحسين بن علىّ ، وأمر عامله سعيدًا أن يوصل كتبه إليهم ويبعث إليه بجواباتها . وقال لسعيد : « فهمت ما ذكرت من إبطاء الناس ، وقد كتبت إلى رؤسائهم كتبًا فسلمها إليهم .. ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق . وانظر حسينًا خاصة فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابة وحقا عظيمًا لا ينكره مسلم ولا مسلمة .. وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه » .

* * *

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة فى إقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية إلى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم . يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمّرون وتجبون المال وتقسمونه » .

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيّره بين أن يصنع كما صنع رسول الله إذ لم يستخلف

أحدًا ، أو كما صنع أبو بكر ، إذ عهد إلى رجل ليس من بنى أبيه ، أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه .

فقال معاوية مغضبًا : « هل عندك غير هذا ؟ » .

قال : « لا .. » .

والتفت إلى الآخرين يسألهم قائلاً : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير .

فقال متوعدًا : « أعذر من أنذر ! .. إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقالة .. فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا ييقين رجل إلا على نفسه ! » .

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما » .

ثم خرج بهم إلى المسجد ورقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

— هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى إلا على مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله فبايع الناس .

وهكذا كانت البيعة ليزيد فى الحجاز .

* * *

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها .. فأوصى ابنه « أنه لا يخاف إلا هؤلاء من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير » . قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن على فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه .. فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحمًا ماسة وحقا عظيما .

« أما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإذا أمكنته فرصة وثب .. فإن هو فعلها فقدرت

عليه ، فقطعه إربًا إربًا إلا أن يلتمس منك صلحًا ، فإن فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » .

خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو إلى يزيد فى سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده فى تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة ، وزياد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه .. فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب إلى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان : « أن خذ حسينًا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » .

فبعث الوليد إلى مروان بن الحكم يستشيره .. وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بنى أمية ، فإن خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة فى الدعوة ليزيد وباطنها السعى إلى الخلاص من يزيد ومنافسيه . فقال : « أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة . أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فإن بايعا وإلا فاضرب أعناقهما .. » .

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد .. ثم الخلاص من يزيد نفسه بإثارة النفوس وإيغار الصدور عليه ! .

* * *

وقد ذهب رسول الوليد إلى الحسين وابن الزبير ، فوجدهما فى المسجد .. فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد : « إن دعوتكم أو سمعتم صوتى قد علا فاقتحموا علىَّ بأجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم » ..

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سرا ، ولا أراك تقنع بها منى سرا » .

قال الوليد : « أجل ! » .

قال الحسين : « فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدًا » .

ثم انصرف ومروان غاضب صامت لا يتكلم .. وما هو إلا أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد : « عصيتنى والله ! لا قدرت منه على مثلها أبدًا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه » .

فأنكر الوليد لجاجته وقال له : « أتشير علىَّ بقتل الحسين ! والله إن الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله » .

* * *

وهكذا انتهت المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشم إلى مفترق طريق لا سبيل فيه إلى توفيق ، و لم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وإن غلبها الإسلام فى عهد النبوة ، وفى عهد الصديق والفاروق .

وكفى بالإسلام فضلاً فى هذا المجال أنه غلب العصبية بالعقيدة ، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة .

* * *

وكثيرًا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وإن طالت به الرياضة والانقياد .

فاتفق كثيرًا فى مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت إلى اللسان بوادر العصبية والنبى ﷺ حاضر ، فلما أشار عمر بقتل أبى سفيان – على خلاف رأى العباس فى استبقائه وتألفه – قال العباس : « مهلاً يا عمر ! فو الله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف » .

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفترين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك – الأوس – ما قلت هذا .. » .

وقد مات الفاروق وهو يوصى عليًّا فيقول : « اتق الله يا علىّ إن وليت شيئًا ، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين » .. ثم يلتفت إلى عثمان فيقول له : « اتق الله إن وليت شيئًا فلا تحملن بنى أمية على رقاب المسلمين » .

* * *

ومن عجائب الحيل التى تحاول بها الغرائز الإنسانية أن تبقى وجودها وتمضى لطيَّتها ، أن بنى أمية انتفعوا من حرب الإسلام للعصبية فى تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بنى هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون .. وإذا نهضت هذه الحجة على بنى هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة فى هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية ابن أبى سفيان ، فكان يلطف القول إلى أبناء علىّ ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرًا إلى مجاملة آل علىّ ومضطرًا إلى تنقص علىّ والغض من دعواه . فكان بذلك مضطرًا إلى النقيضين فى آن .

إنه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور . فكان الناس يفضلون عليًّا عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقرابة النبى ، ولا بالسابقة إلى الإسلام ، ولا بالعراقة فى قريش . فتجنب النسب والسابقة ، وعمد إلى شخص علىّ فى منازعات الخلافة ، فاتهمه بتفرقة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التى هو مغلوب بها ويستبقى الدولة التى هو بها غالب .. ولج فى ذلك حتى قتل أناسًا لم يطيعوه فى لعن علىّ واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن علىّ إلى شرطه الذى أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه .. وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعورًا من حيث حارب عليًّا فى مقام السمعة والشعور .

وإن مجاملة كهذه التى تحيى الرجل وتغض من قدر أبيه لهى أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلاً عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال إلى مفترق الطريق .